أحمد عبدالمنعم عيد
كاتب وباحث إسلامي

حتمية الاختلاف وضرورة الإنصاف

الاختلاف أمر طبيعي، فالله سبحانه لم يخلق الناس على نمط وشكل واحد، بل خلقهم مختلفين في اللون واللسان، وجعل ذلك آية من آياته سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ (الروم:٢٢).

وبين سبحانه أن الاختلاف لا مناص منه، فلو شاء الله لجعل الناس على نسق واحد دون اختلاف، ولكن مشيئته سبحانه اقتضت ذلك ليعمر الكون، وتزدهر الحياة: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (هود:١١٨-١١٩)

وفي باب الإيمان والهدى خاطب الله سبحانه وتعالى رسوله مخففا عنه ضيقه من إعراض قومه، وبين له أن اختلاف الناس حتمي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا

﴿أَفَلَمْ يَايْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد:٣١).

وكما خلق الله الناس مختلفين في أشكالهم وألوانهم وألسنتهم، خلقهم كذلك مختلفين في إدراكهم وفهمهم للأمور واستنباط الحكم والدروس من المواقف أو الأحكام من النصوص، فإلى جانب اختلاف الألسنة والألوان خلق الله الناس بعقول ومدارك مختلفة، وهذه الأمور تقتضي الاختلاف في الآراء وتعددها، وكذلك اختلاف الأحكام باختلاف قائليها، وهذا الاختلاف يعتبر أيضا آية من آيات الله سبحانه وتعالى ودليلا على قدرته سبحانه وتعالى.

وقد حدث الاختلاف على عهد رسول الله ﷺ، ومما اشتهر في هذا الباب هو اختلافهم في تفسير أمر النبي ﷺ لهم بعد الأحزاب لا يصلي أحد العصر إلا في بني قريظة، فعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال لنا عند عودتنا من الأحزاب «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة» فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر للنبي ﷺ، فلم يعنف واحدا منهم[1].

فبعض الصحابة أخذوا بظاهر النص، وقالوا: إنما أراد ألا نصلي إلا في بني قريظة. وقال الآخرون: إنما أراد منا التعجيل، ولم يعنف النبي ﷺ أحد الفريقين، وإنما قبل منهما اجتهادهما، وأقرهما على ما ذهبا إليه.

واختلف الصحابة مع عمرو بن العاص عندما احتلم في ليلة شديدة البرد وهو في سرية ذات السلاسل فتيمم ولم يغتسل، فشكاه الصحابة إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟». فأخبره بالذي منعه من الاغتسال وقال: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء:٢٩)، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا[2].

فالصحابة اختلفوا والرسول حي يرزق، ولكن كان من سمات الاختلاف في زمنهم الترفع عن الهوى والتجرد للحق وعودتهم إلى رسول الله ﷺ بعد الاختلاف فيُعلم، ويُفهم، وينتهي الخلاف في حينه.

وكما حدث الاختلاف في عهد النبي ﷺ حدث بعد مماته فقد اختلف الصحابة في مكان دفنه، واختلفوا في اختيار الخليفة من بعده، واختلفوا في قتال مانعي الزكاة.

ولكنهم كانوا يحسمون الخلاف بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإذا جاء الدليل انتهى الاختلاف.

وبعد فترة الصحابة وبعد الناس عن زمن النبوة، كثر الاختلاف في فهم النصوص، وتكونت مذاهب فقهية لكل واحد قانونه وأسلوبه في الأخذ من الحديث والآية وله قدرة بقدر ما على استنباط الحكم.

وأصحاب المذهب الواحد يختلفون فيما بينهم، فالدارس للفقه يعتاد كلمة على أحد قولي الشافعية أو الحنابلة أو المالكية.

فالحاصل أن الاختلاف حتمي ولا مفر منه، وهو محمود إذا كان بعد اجتهاد، وخلصت النية فيه لله، وتوحد الغرض على الوصول إلى الحق، ولم يكن الاختلاف بداعي الهوى.

وإن كان الاختلاف حتميا فلابد عند الاختلاف أن نوقن أن التقدير والإنصاف ضرورة.

والله سبحانه هو من علمنا هذا المبدأ، فقد اختلف داود وسليمان في الحكم بين صاحب الغنم وصاحب الزرع: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنبياء:٧٨-٧٩).

فقد قضى داود أن الغنم لصاحب الزرع فخرج الرعاء ليس معهم إلا الكلاب، فقال سليمان: لا، بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها، ويعطى أهل الغنم الكرم، فيعمروه، ويصلحوه، حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم[3].

وقد أنصف الله تعالى سليمان بتصويب حكمه بقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، وحفظ لنبي الله داود قدره بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

فإذا كان الاختلاف حتميا فإن الإنصاف ضروري، حتى يضبط الاختلاف بالقيم، ويصبح الاختلاف فرصة لتلاقي الأفكار، والتعرف على الاحتمالات التي يمكن أن يحملها الدليل.

وقد ضرب الأئمة الأربعة أعظم المثل في الإنصاف وحفظ القدر للمخالف.

فهذا الإمام مالك ينصف أبا حنيفة على الرغم من الاختلاف بينهما، فمالك إمام أهل السنة ويُحسب على أهل الأثر وأبو حنيفة إمام أهل الرأي.

وعلى الرغم من هذا القدر من الاختلاف فإن الإمام مالك كان منصفا له، حافظا له قدره، فعن القاضي عياض قال: قال الليث بن سعد: لقيت مالكا في المدينة فقلت له إني أراك

تمسح العرق عن جبينك. قال: عرقت مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري، قال الليث ثم لقيت أبا حنيفة وقلت له ما أحسن قول هذا الرجل (يقصد مالكا)، فقال أبو حنيفة: ما رأيت أسرع منه بجواب صادق ونقد تام[4].

إنصاف من العلمين العالمين الراسخين أحدهما للآخر رغم الاختلاف.

وشعبة بن الحجاج كان أميرا للمؤمنين في الحديث، وأبو حنيفة من أهل الرأي، والاختلاف بين المدرستين كبير، وعلى الرغم من هذا الاختلاف أنصف شعبة أبا حنيفة. فيقول عندما علم بموت أبي حنيفة: لقد ذهب علم الكوفة، تفضل الله عليه وعلينا برحمته.

نفس الإنصاف وأكثر كان من الإمام الشافعي للإمام أبي حنيفة فقد سئل الشافعي عن أبي حنيفة فقال: لو جاء إلى أساطينكم هذه (يعني سواري المسجد) ثم قايسكم على أنها خشب لظننتم أنها خشب.

وكان الشافعي يقول كان أبو حنيفة وقوله في الفقه مسلما له فيه قال وسمعت.

وكان يقول أيضا من أراد أن يفتن في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحق ومن أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة[5].

ولم يكن الإنصاف عند مالك والشافعي فقط، بل كان تاجا يزين الإمام أحمد بن حنبل، فقد كان يكثر الدعاء للشافعي، فسأله ولده عبدالله، أي رجل كان الشافعي فإني أراك تكثر الدعاء له؟ فقال: يا بني، كان الشافعي، رحمه الله، كالشمس للدنيا والعافية للبدن، فانظر هل لهذين من خلف أو عوض؟[6].

وعاب يحيى بن معين على الإمام أحمد أن يأخذ بلجام دابة الشافعي لشافعي راكب، وذكر ذلك لولده صالح فقال له: أما يستحي أبوك مما يفعل؟ فقلت: وما يفعل؟ قال رأيته مع الشافعي والشافعي راكب وهو آخذ بزمام دابته. فقلت لأبي، قال، إن لقيته فقل له إذا لقيته إذا أردت أن تتفقه فتعال فخذ بركابه من الجانب الآخر[7].

وفي الوقت نفسه كان الشافعي يحدث عن ابن حنبل ويطلب منه إخباره بالحديث إذا صح عنده اعترافا بقدمه الراسخة في الحديث وعلمه به فعن عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبي يقول: كان الشافعي من أفصح الناس. قلت: وكان له سن؟ قال: لم يكن بالكبير. قال عبدالله: وسمعت أبي يقول: قال الشافعي لنا أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال مني فإذا كان الحديث صحيحا فأعلموني أن يكون كوفيا أو بصريا أو شاميا أذهب إليه إذا كان صحيحا[8].

وما سقته هو عبارة عن مثل بسيط من الأدب، ومن الإنصاف وحفظ القدر بين أعلام الفقه عبر التاريخ، ومن غدت مذاهبهم موضع التقدير والتقليد من الأتباع في كل مكان، يختلفون في المنهج وطرق الاستدلال، وتباينت أقوالهم في كثير من المسائل، وحشرت الكتب باختلافاتهم، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يؤثر عنهم إلا الإنصاف بعضهم لبعض والتقدير والاحترام.

لم يكن اختلافهم عن هوى كما يتحكم الهوى في بعض المقلدين في زماننا، وإنما كان الاختلاف محض اجتهاد، فكل واحد منهم بذل الجهد، وأفرغ الوسع ليفتح الله له، فمنهم من أصاب، ومنهم من أخطأ، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يؤثر عن أحدهم كلمة يظهر منها الإجحاف أو التقليل من غيره.

لقد كانوا نجوما تزهر وتنير الدروب، كل نجم له شكله ومداره وموضعه في السماء، وكلهم في النهاية نجوم تنير يهتدي بها الناس في دروب الحياة.

والتراث ممتلئ بالمواقف النبيلة التي أثرت عن علمائنا، عليهم رحمة الله، والتي تدل على إنصافهم وعدم تعصبهم، وما ذكرت ما ذكرت إلا لأنهم هم أصحاب المذاهب التي يقلدها الناس في أرجاء الأرض، والتي يتعصب لها بعض المقلدين، ويصل هذا التعصب إلى حد إهالة التراب على من سواه، حتى بدا الاختلاف في كثير من الأحيان في الرأي عبارة عن حد يعلن من خلاله الولاء والبراء.

رأيت أبا حنيفة كيف قدر مالكا، وكيف أعلن مالك انبهاره بعقل أبي حنيفة، وثناء الشافعي على كليهما، وثناء ابن حنبل على الشافعي، واعتراف الشافعي بقوة ابن حنبل في الحديث ولم يمنعه علمه ومكانته من أن يطلب منه أن يزوده بالحديث إن صح عنده.

هكذا كانوا أقولها لكل متعصب يحمله التعصب على عدم إنصاف المخالف والترفع على عدم الاعتراف بالحق كبرا وأنفة. يختلف الناس والاختلاف أمر ضروري، ولكن يجب أن نتحلى بأدب الاختلاف، وأن نعزز فينا خلق الإنصاف واحترام المختلف معنا، خصوصا أن الإسلام أبقى لكل واحد اجتهد قدره أصاب أم أخطأ.

الهوامش

١- أخرجه البخاري، كتاب: «الصلاة»، باب: «صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء»، رقم ٩٤٦.

٢- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: «الطهارة»، باب: «إذا خاف الجنب البرد أيتيمم»، رقم ٣٣٤.

٣- تفسير ابن كثير، (٣٤٥/٥)، تحقيق: د. حكمت بشير.

٤- موطأ الإمام مالك، ت: الأعظمي، باب: «تأليف الموطأ وتاريخه»، ص:٢٧٢.

٥- الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء، ١٣٦.

٦- المرجع السابق، ص:٧٥.

٧- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، باب: «ذكر ثناء العلماء عليه بسعة العلم»، (١٨٢/٣).

٨- الانتقاء في فضل الأئمة الثلاثة الفقهاء، باب: «في طلبه للعلم وملازمته»، ص:٧٥.